سبيل النجاة

الإخلاص

الصبر

الصدق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

قال الشيخ الإمام العارف : أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادى الخرّاز قدّس الله روحه ، ونور ضريحه :

قلت لبعض العلماء : أخبرنى عن الصّدق ، كيف هو ؟ ومامعناه ؟ وكيف العمل به ، حتى أعرفه ؟

فقال : الصّدق اسم للمعانى كلها ، وهو داخل فيها .

أتحبّ أن أجيب عن مسألتك جواباً مختصراً أجمله أم أشرح لك العلم والعمل بالأصول التى بها تقوم الفروع ؟

قلت : أريد الأمرين جميعاً ؛ ليكون ذلك علماً لى ، وفقهاً ، ونصرة .

فقال : وفقت ، إن شاء الله !

اعلم : أنّه لابدّ للمريد – المحقّق فى إيمانه ، والمطالب لسلوك سبيل النجاة – من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها ، فبذلك يقوى إيمانه ، وتقوم حقائقه ، وتثبت فروعه ، فتصفو ، عند ذلك ، الأعمال وتخلص ، إن شاء الله :

فأوّلها الإخلاص :

لقول الله ، عزّ وجل : (فاعبد الله مخلصاً لهُ الدين ألا لله الدينُ الخالص)[1] .

وقال تعالى : (فادعُوا الله مخلصِين له الدين)[2]

وقال لمحمد ﷺ : (قل : إنى أُمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين)[3]

وقال : (قُل الله أعبُدُ مخلصاً له دينى)[4]

وقال جل ذكره : (واذكر فى الكتاب موسى ، إنه كان مخلصاً ،[5] وكان رسولاً نبياً) .

ونحو هذا فى القرآن كثير ، وفى هذا مقنع .

ثم الصدق :

لقول الله ، عزَّ وجلّ : (يَاأيُّها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، وكونوا مع الصادقين)[6]

وقال تعالى : (فلو صدقُوا الله لكان خيراً لهم)[7] .

---

(١) سورة الزمر : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة غافر : ١٤ .

(٣) سورة الزمر : ١١ .

(٤) سورة الزمر : ١٤ .

(٥) سورة مريم : ٥١ وهذا على القراءة بكسر اللام .

(٦) سورة التوبة : ١١٩ .

(٧) سورة محمد عليه السلام : ٢١ .

وقال تعالى : (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)[1]

وقال تعالى : (واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد)[2]

وقال : (ليسأل الصادقين عن صدقهم)[3]

وقال تعالى : (والصادقين والصادقات)[4]

وهذا كثير فى القرآن .

ثم الصبر :

لقول الله عز وجل : (يَـأيُّها الذين آمنوا اصبرُوا وصابرُوا)[5]

وقال تعالى : (ولئن صبرتُم لهو خير للصابرين)[6]

وقال تعالى : (واصبر وماصبرُك إلا بالله)[7] .

وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)[8]

وقال تعالى : (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلاً)[9]

---

(١) سورةالأحزاب : ٢٣ .

(٢) سورة مريم : ٥٤ .

(٣) سورة الأحزاب : ٨ .

(٤) سورة الأحزاب من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٦) سورة النحل : ١٢٦ .

(٧) سورة النحل : ١٢٧ .

(٨) سورة الطور : ٤٨ .

(٩) سورة المزمل : ١٠ .

وقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداةِ والعشِّى . يريدُون وجهه)[1]

وقال تعالى : (واصبروُا ، إن الله مع الصَّابرين)

وقال تعالى : (وبشر الصَّابرين)[2] .

فجعل لهم الكرامة بالبشرى .

وهذا كثير مؤكد فى القرآن .

* * *

وهذه ثلاثة[3] أقسام لمعان مختلفة ، وهى داخلة فى جميع الأعمال .

ولاتتم الأعمال إلا بها فإذا فارقت الأعمال فسدت ولم تتم .

ولايتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض ، فمتى فقد أحدها تعطلت الأخر .

قال : فالإخلاص لايتم إلا بالصدق فيه ، والصبر عليه .

والصبر لايتم إلا بالصدق فيه ، والإخلاص فيه .

والصدق لايتم إلا بالصبر عليه ، والإخلاص فيه .

الإخلاص :

فأول الأعمال : هو الإخلاص .

---

(١) سورة الكهف : ٢٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٥٥ .

(٣) الإخلاص ، والصدق ، والصبر .

فالفرض الواجب : أن تؤمن بالله ، وتعلم وتقرّ وتشهد ألاّ إلهَ إلا الله وحده لاشريك له ، وأنه : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، والخالق ، والبارئ ، والمصوّر ، والرزّاق ، والمحيى ، والمميت ، الذى إليه ترجع الأمور ، وأن محمداً عبدُه ، ورسوله ، جاء بالحق من عند الحق ، وأن النبيين حق ، وبالحق أدّوا الرسالة ، وبالغوا[1] فى النصيحة ، وأن الجنة حق ، والبعث حق ، والمردَّ إلى الله تعالى ، يغفر لمن يشاء ، ويُعذب من يشاء .

ويكون ذلك عَقدَك[2] ظاهراً على لسانك ، بلا شك ولاريب ، ساكناً[3] قلبك مطمئناً إلى ماصدقت به وأقررت .

وكذلك لايعارضك – فى كل ماجاء من عند الله على لسان نبيه ، ﷺ – شكٌّ فى كل ماذكره عن ربه ، عز وجل ، غير مخالف لما كان عليه النبى ، ﷺ[4] ، وأصحابه ، وأئمة الهدى ، الذى كانوا قدوة لمن جاء بعدهم من أهل الهداية ، ثم التابعون من بعدهم ، ثم علماء كل عصر ، متبعاً للجماعة ، مخلصاً فى ذلك لله وحده ، لاتريد إلا الله تعالى ، ليتم إسلامك ، وإيمانك ، وتوحيدك .

---

(١) ترقوا فيها إلى أعلى نهاياتها .

(٢) اعتقادك .

(٣) ذهب مابه من شك .

(٤) وذلك قوله تعالى : « فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .

وهو الذى أمر الله تعالى به حين يقول : (فمن كان يرْجو لقاء ربه فليَعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)[1]

فمن شرح ذلك : أن يكون العبد يريد الله ، عز وجل ، بجميع أعماله وأفعاله ، وحركاته كلها ظاهرها وباطنها ، لايريدُ بها إلا الله وحده ، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه ، راعياً لهمه ، قاصداً إلى الله تعالى ، بجميع أمره ، لايحب مدح أحد ولاثناءه ، ولايفرح بعمله – إذا اطَّلع عليه المخلوقون – فإن عارضه [2] من ذلك شيء اتقاه[3] بالسرعة والكراهية ، ولم يكن[4] إليه ، لكن إذا أثنى عليه أحد ، حمد الله على ستره عليه[5] حين وفَّقه لخير رآه العباد عليه .

نعم ثم يخاف عند ذلك ، من عمله الردىء ، وسريرته القبيحة ، التى خفيت على الناس ولم تخف على الله ، فأشفق من ذلك ؛ وخاف أن تكون سريرته أقبح من علانيته .

فهكذا يروى فى الحديث :

« السريرة إذا كانت أقبح من العلانية فذلك الجور ، فإذا استوت

---

(١) سورة الكهف : ١١٠ .

(٢) ظهر له .

(٣) حفظ نفسه منها .

(٤) يركن ويطمئن .

(٥) ستره عليه : رعاية له بإظهار خيره وإخفاء شره .

السريرة والعلانية فذلك العدل . وإذا فضلت السريرة على العلانية فذلك الفضل »

فالواجب على العبد أن يخفى عمله [1] جهده حتى لا يطلع عليه إلا الله تعالى . فذلك أبلغ فى رضا الله . عز وجل . وأعظم فى مضاعفة الثواب . وأقرب إلى السلامة . وأوهن لكيد العدو . وأبعد من الآفات .

وروى عن سفيان الثورى . رحمه الله . أنه قال : « ما أعبأ بما يظهر من عملى »

ويروى فى الحديث :

« أن عمل السر يفضل على عمل العلانية سبعين ضعفاً » [2] .

---

(١) قوله : أن يخفى عمله : أى الذى لم يطلب الشرع فيه الظهور . لأن الشعائر كلها كالحج والعمرة والجماعة فى الصلوات و . . إلخ . مطلوب فيها الظهور شرعاً .

وأما غير الشعائر : كالصدقات وعمل البر أيًا كان . فالأمر فيه على مايأتى : إن كان مرشدا . أو قصد الحث عليه تعين إظهاره ليؤدى المطلوب . كما كان فى حديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها . وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة . ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

فإظهار الخير والبر بقصد الإرشاد المطلوب .

لكن محل ذالك إذا آنس من قلبه اتجاهاً إلى الله وحده . ولم يخش تمرد الأمارة بالسوء . وإليك ميزاناً لمعرفة ذلك الاتجاه وهو :

إن كان المريد أشد فرحا وتلذذاً به فى خلوته فعله . وإلا فلا .

(٢) ذلك للأعمال التى لم يطلب الشرع فيها الإظهار .

ويروى : «إن العبد ليعمل العمل فى السر ، فيَدَعه الشيطان عشرين سنة ، ثم يدعوه إلى أن يظهره ، ويذكره ، فيُنقَلَ من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فينقص من ثواب العمل وفضله ، ثم لايزال يذكره بذكره أعماله ، حتى يذكرها للناس ، ويتحلى[1] اطلاعهم عليها ، ويسكن[2] إلى ثنائهم فيصير رثاء»[3].

فهذه الأمور : ضدّ الإخلاص ، وماذكرنا : فهو من جملة الإخلاص الذى لابد للمخلوقين من معرفته والعمل به ولا يسعهم جهله ، وتبقى الزيادة فى الإخلاص مع العبد إذا أحكم هذه الأصول .

قلت : ثم ماذا ؟

قال : مما يمكن أن يذكر أن يكون العبد لايرجو إلا الله ، ولايخاف إلا الله ، ولايتزين إلا لله ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يبالى ، إذا وافق الأمر الذى فيه محبة الله ورضاه ، مَن سَخِطه .

وما بقى من ذكر غاية الإخلاص أكثر ، وفى هذا بلاغ للمريدين السالكين للطريق !

---

(١) يجد لذة فى إطلاعهم عليها .

(٢) يرتاح ويركن .

(٣) رياء .

الصبر :

والصبر اسم لمعان ظاهرة وباطنة ، فأما الظاهرة فهى ثلاث :

فأولها : الصبر على أداء فرائض الله تعالى ، على كل حال ، فى الشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، طوعاً وكرهاً .

ثم الصبر الثانى : هو الصبر عن كل ما نهى الله تعالى عنه ، ومنع النفس من كل ماتالت إليه بهواها مماليس لله تعالى ، فيه رضاً ، طوعاً وكرهاً .

وهذان صبران فى موطنين : هما فرض على العباد أن يعملوا بهما .

ثم الصبر الثالث : هو الصبر على النوافل ، وأعمال البر ، مما يقرب العبد إلى الله تعالى ، فيحمل نفسه على بلوغ الغاية منه للذى رجاه من ثواب الله ، عز وجل .

وهكذا يروى ، أن النبى ، ﷺ فيما رواه عن ربه ، عز وجل قال : « ماتقرب إلىّ عبدى بمثل ما افترضته عليه ، ولايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه »(١)

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ومايزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » رواه البخارى .

والصبر الرابع : [1] هو الصبر على قبول الحق ممن جاءك به من الناس ، ودعاك إليه بالنصيحة ، فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله ، جل ذكره ، إلى العباد ، ولايجوز لهم رده . فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله ، تعالى ، أمره !

وهذا ظاهر الصبر الواجب على الخلق الذى لايسعهم جهله ، ولابد لهم منه .

وبقى شرح حقائق الصبر وغايته ، الذى يكون مع الصابرين بعد إحكام هذا الصبر الذى ذكرناه .

قلت : فالصبر فى نفسه ، ماهو وما موجوده فى القلب ؟

قال : الصبر هو احتمال مكروه النفس .

وموجوده : إذا وقع بالنفس ماتكرهه تجرّعت ذلك ، وأنفت الجزع ، وتركت البث والشكوى ، وكتمت مانزل بها .

لأنه يروى فى الحديث : « من بثّ[2] فقد شكا »

ألم تسمع الله ، تعالى ، يقول : (والكاظمين [3] الغيظ والعافين

= وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ، قال : « إذا تقرب العبد إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلى ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة . » رواه البخارى .

(١) هو الصبر الباطن .

(٢) أذاع ونشر سبب الضيق الذى ألم به .

(٣) الذين يخفون غيظهم فلا يظهرونه .

عن الناس) [1]

أفلا ترى أنه كظم ما كَرِهَ ، وشق على نفسه احتماله ، فصار صابراً ؟ فإذا أبدى الجزع وكافأ من أساء إليه [2] ، ولم يعف عمن أساء إليه : خرج من حدّ الصبر على هذا القياس .

قلت : فبماذا يَقوى الصابرُ على الصبر ، وبماذا يتم له ؟

قال : يروى فى الحديث :

« إن الصبر عن المكاره ، من حسن اليقين » .

ويروى :

(إن الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » [3]

وذلك أن العبد لما آمن بالله تعالى ، وصدّق قوله فى الذى وعده وتواعده ، قامت فى قلبه الرغبةُ فى ثواب الله تعالى ، الذى وعده ، ولزمت قلبَه الخشيةُ من عقاب الله الذى تواعده ، وصحت عند ذلك رغبته ، وقامت عزيمته فى طلب النجاة مما يخافه ، وهاجت آماله فى الظفر بالذى يرجوه ، فجدّ [4] عند ذلك فى الطلب والهرب ، فسكن الخوف والرجاء قلبَه ! فركب عند ذلك مطية الصبر ، وتجرّع مرارته عند

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٣٤ .

(٢) قابل الإساءة بالإساءة .

(٣) أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب .

(٤) اجتهد .

نزوله ، ومضى فى إنفاذ العزائم ، وحذر من نقصها ، فوقع عليه اسم الصبر .

الصدق :

والصدق اسم لمعان كثيرة :

فأول الصدق هو صدق العبد فى الإنابة [1] إلى الله تعالى ، بالتوبة النصوح .

لقول الله عز وجل : (يـٰأَيُّها الذين آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصوحاً) [2] .
وقال تعالى : (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جميعاً أَيُّها المؤْمِنُونَ لَعَلَّكم تفْلحُونَ) [3] .
وقال تعالى : (لَقَدْ تابَ اللهُ علَى النَّبىِّ والْمُهاجِرِينَ والأَنْصَارِ) [4] .

فأول التوبة هو الندم على ما كان من التفريط فى أمر الله تعالى ، ونهيه ، والعزيمةُ على ترك العود فى شىء مما يَكْره الله ، عز وجل ، ودوام الاستغفار وردّ كل مظلمة للعباد من مالهم ؛ والاعتراف لله ، تعالى ولهم ، ولزوم الخوف والحزن والإشفاق ألا تكون مصححاً ؛ والخوف

---

(١) أناب إلى الله تعالى : أقبل عليه وتاب .
(٢) سورة التحريم : ٨ .
(٣) سورة النور : ٣١ .
(٤) سورة التوبة : ١١٧ .

ألا تقبل توبتك [1] ولا تأمن أن يكون قد رآك الله تعالى ، على بعض مايكره فمقتك .

وهكذا يروى عن الحسن البصرى ، رضى الله عنه ، أنه قال : مايؤمِّنني أن يكون قد رآني على بعض ما يكره ، فقال : إعمل ماشئت فلا غفرت ؟

ويروى عنه أيضاً أنه قال : أخاف أن يطرحني فى النار ولايبالى .

---

(١) إن المؤلف – رضوان الله عليه – يحاول ما أمكن أن يوقظ الضمير الدينى فى قوة ، وأن يهز الشعور الروحى هزة تنبهه من غفلته . وكلامه متجه إلى من شاب توبته شىء من التردد . ولعل الواجب شرعاً : أن يوقن قبول الله لتوبته ، إذا تاب توبة نصوحاً بشروطها ، لأن فى توبة العبد : طلب الغفران من الله تعالى ، وقد جاء :

« ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة . » وجاء : عن الله تعالى :

« أنا عند ظن عبدى بى » أو كما قال .

والمؤمن لايبئس من روح الله ولايقنط ، كما جاء فى الكتاب الكريم ، وجاء فى الأحاديث الصحيحة الكثير من فرح الله تعالى بتوبة العبد الذى جاء إلى الله بقراب الأرض ذنوباً ، ولعل الأنسب أن يقال :

إن التوبة لطف من الله تعالى ، ألذى أيقظ قلبه لتوبته . لأن المعصية تورثه القسوة ، فلم يعد يتذوق حلاوة الطاعة ومرارة المعصية ، فيستمر إلى أن يموت كافراً ولايأمن الشيطان الذى يغريه بالمعصية أولاً ، وأن له أن يتوب ثانياً . وذلك دأب الشيطان مع بعض الصالحين : يزين لهم التوبة بعد المعصية ، وقد غفلوا عما ذكر من يقظة القلب قبل المعصية ، وغفلته بعدها .

نعم : عليه أن يذكر شبح المعصية ، وأنها تؤدى به ، لولا لطف الله الذى نبهه وألهمه التوبة ، وأنه لايضمن ذلك بعد أية معصية ، فيستمر فى حذر من كيد الشيطان ، إنه عدو مضل مبين .

وبلغنى أن بعض العلماء لقى بعض الناس فقال له : تبت ؟

قال : نعم .

قال : قُبلتَ ؟

قال : لا أدرى

قال : اذهب فادر .

وقال : «يفنى حزن كل ثكلى [1] وحزن التائب ما يفنى ! »

ومن صدق التوبة : ترك الأخدان والأصحاب الذين أعانوك على تضييع أمر الله تعالى . والهرب منهم ، وأن تتخذهم أعداء ، أو يرجعوا إلى الله .

فهكذا قال الله عزّ وجلّ : (الأخِلاَّءُ يَوْمئِذٍ بَعْضُهمْ لبعضٍ عدوٌّ إلا المتَّقينَ) [2]

ومن صدق التوبة : خروج المأثم من القلب ، والحذر من خفايا التطلّع إلى ذكر شيء مما أنبت [3] إلى الله منه قال الله ، عزّ وجلّ :

---

(١) التى فقدت ابنها .

(٢) سورة الزخرف . ومنه قوله تعالى :

(ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا) وقوله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) . .

(٣) رجعت : تبت .

(وذرُوا ظاهِرَ الإثمِ وباطِنَهُ)[1]

واعلم أن المؤمن كلما صحّح ، وكثر علمه بالله تعالى ، دقّت عليه التوبة أبداً ، ألا ترى أن النبى ﷺ يقول : «إنه ليغان على قلبى ، فأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم مائة مرة» ؟ [2]

فمن طهر قلبه من الآثام والأدناس ، وسكنه النور ، لم يخفَ عليه ما يدخل قلبه من خفيِّ الآفة ، ومايلزمه من القسوة : من الهمّة بالزلة قبل الفعل ، فيتوب عند ذلك .

---

(١) عقد القلب على المعصية – سورة الأنعام ١٢٠ .

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما . يغان على قلبى : يغشى عليه .